الباب الأول
القصص والعقائد

obeikan.com

obeikan.com

الفصل الأول

«موضوع شُبَه الكفار حول الرسل»

من خلال قصة (نوح) عليه السلام

لقد تناول الشعراوي موضوع شُبَه الكفار حول الرسل من خلال عرضه للمشهد الذي ورد في سورة هود من قصة نوح – عليه السلام – والذي صوَّره قول الله تعالى:

(وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُبِينٌ (٢٥) أَنْ لَا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ أَلِيمٍ (٢٦) فَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ مَا نَرَاكَ إِلَّا بَشَرًا مِثْلَنَا وَمَا نَرَاكَ اتَّبَعَكَ إِلَّا الَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِيَ الرَّأْيِ وَمَا نَرَى لَكُمْ عَلَيْنَا مِنْ فَضْلٍ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَاذِبِينَ (٢٧)).[١]

فيقف الشعراوي عند هذا الموضوع الخاص بالرسل معالجًا القضايا الآتية:

أ- شُبْهَة إنكار الكفار لبشرية الرسل.

---

[١] سورة هود، الآيات: ٢٥-٢٧.

ب- شُبْهَة إنكار الكفار أنَّ أَتْبَاعَ الرسل من الأراذل.

ت- وكذا شُبْهَة إنكار الكفار الذي تَمثَّل في قولهم: (...وَمَا نَرَى لَكُمْ عَلَيْنَا مِنْ فَضْلٍ...).

الشُّبْهَة الأولى: وهي إنكار الكفار أن يكون الرسول بشرًا.

لقد استقبل الملأ[1] من قوم نوح – عليه السلام – أمر نوح لهم بالدعوة باستنكارهم أن يكون الرسول بشرًا. فقالوا كما حكى القرآن الكريم عنهم (مَا نَرَاكَ إِلَّا بَشَرًا مِثْلَنَا...)[2] فهم «يَعْنَون بذلك أنه آدمي

---

[1] ملأ: الملأ جماعة يجتمعون على رأي فيملئون العيون رواءً ومنظرًا، والنفوس بهاءً وجلالًا. قال تعالى: (أَلَمْ تَرَ إِلَى الْمَلَإِ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ...) وقال تعالى: (قَالَتْ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ إِنِّي أُلْقِيَ إِلَيَّ كِتَابٌ كَرِيمٌ) وغير ذلك من الآيات. يقال: «فلان ملء العيون» أي مُعظَّم عند من رآه كأنه ملأ عينه من رؤيته. ومنه قيل: شاب مالئ العين، والملأ الخلق المملوء جمالًا.

الأصفهاني، مفردات ألفاظ القرآن، ص٧٧٦، ط. الطبعة الثالثة ١٤٢٣هـ/٢٠٠٢م، دار القلم، دمشق. والدار الشامية بيروت، تحقيق: صفوان عدنان داوودي.

ولقد تأثر الشعراوي بتعريف الراغب الأصفهاني لكلمة «الملأ» يقول: «الملأ: هم وجوه القوم، وهم السادة الذين يملئون العيون مهابة، ويقال: «فلان قيد النواظر» أي أنه إذا ظهر تقيَّدت به كل النواظر» راجع تفسير الشعراوي، ج١٠، ط. دار أخبار اليوم لعام ١٩٩١م.

[2] سورة هود، الآية: ٢٧.

مثلهم في الخلق والصورة والجنس، كأنهم كانوا منكرين أنَّ اللّٰه يرسل من البشر رسولًا إلى خلقه[1]» وإنكارهم كون الرسول بشرًا هو أيضًا «تعريض بأنهم أحق منه بالنبوة، وأنَّ اللّٰه لو أراد أن يجعلها في أحد من البشر لجعلها فيهم، أو أرادوا أنه كان ينبغي أن يكون مَلَكًا لا بشرًا»[2]

ويرد الشعراوي على تلك الشبهة بأنَّ: «قولهم هذا دليل غباء...لأنه لو كان الرسول من غير البشر لكان من حق القوم أن يعترضوا؛ لأنهم لن يستطيعوا اتخاذ المَلَاكَ أسوة لهم»[3]

ويستحضر الشعراوي من النص القرآني الكريم المعالجة القرآنية لهذه الشبهة، ويتجلى ذلك في لجوء الشعراوي لهذه الطريقة؛ ظهور اللون الموضوعي عنده في التناول، فالشعراوي يتَلَمَّس الإجابة من النص القرآني الكريم. وهذا هو دأب أصحاب التفسير الموضوعي.

---

[1] الطبري، جامع البيان في تأويل القرآن، ج٧/ص٢٨، ط. دار الكتب العلمية ببيروت.

[2] الزمخشري، الكشاف، ج٢/ص٢٧٣-٢٧٤، ط. دار الكتب العلمية ببيروت.

[3] الشعراوي، تفسير الشعراوي، ج١٠/ص٦٤٢٦.

obeikan.com

فالمفسر يجلس بين يدي القرآن الكريم...«يبدأ مع النص القرآني حوارًا حول هذا الموضوع، وهو يستهدف من ذلك أن يكتشف موقف القرآن الكريم من الموضوع المطروح، والنظرية التي بإمكانه أن يستلهمها من النص...»[1]

ولهذا فقد رصد الشعراوي تسجيل القرآن لهذه الشبهة، وذلك في موضع آخر من القرآن الكريم. وكذلك تعليل القرآن لسبب امتناع الناس عن التصديق بنُبُوَّات الأنبياء. يقول الشعراوي:

«ولذلك يبين الحق سبحانه هذه المسألة في قوله تعالى: (وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَنْ يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَى إِلَّا أَنْ قَالُوا أَبَعَثَ اللَّهُ بَشَرًا رَسُولًا)[2]، وجاء الرد منه سبحانه: (قُلْ لَوْ كَانَ فِي الْأَرْضِ مَلَائِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِمْ مِنَ السَّمَاءِ مَلَكًا رَسُولًا)[3]»[4]

فهاتان الآيتان اللتان استحضرهما الشعراوي من سورة الإسراء كانتا في حق كفار قريش؛ فلقد كان من اعتراضاتهم على رسالة

---

[1] السيد محمد باقر الصدر، التفسير الموضوعي والفلسفة الاجتماعية في المدرسة القرآنية، ص٢٦.

[2] سورة الإسراء، الآية: ٩٤.

[3] سورة الإسراء، الآية: ٩٥.

[4] الشعراوي، تفسير الشعراوي، ج١٠/ص٦٤٢٦.

النبي ﷺ أنه بشر مثلهم فما «منعهم الإيمان بالقرآن وبنبوة محمد ﷺ إلا شُبْهَة تلجلجت في صدورهم، وهي إنكار أن يرسل الله البشر، والهمزة في (أَبَعَثَ اللَّهُ بَشَرًا رَسُولًا)[1] للإنكار»[2]

فأراد الشعراوي بهذا الشاهد القرآني السابق من سورة الإسراء، إظهار حكمة أن يرسل الله – تعالى – بشرًا رسولًا؛ وذلك لأنَّ وظائف الرسل تتعدى كونها إمداد بالحقائق التي تغذي العقول دون تطبيق عملي يدعمها في القلوب ويرسخها. ولهذا اتجه الشعراوي إلى توضيح فائدة أن يبعث الله – تعالى – الرسل بشرًا، وذلك من خلال تحديده لمهمتين أساسيتين يقوم بهما الرسول، يقول:

«فالرسول إنما يجيء مُبَلِّغًا منهجًا، وأسوة سلوك، فإذا لم يكن من جنس البشر، فالأسوة لن تصلح، ولن يستطيع إلا البلاغ فقط»[3]

ولكي يزيد الشعراوي هذه القضية العقدية وضوحًا لجمهوره غير المتخصص، نراه يلجأ إلى ضرب الأمثلة لتبسيط وتوصيل المضمون الذي يتناوله بالشرح، ويُعَدُّ هذا فطنة منه بنوعية الجمهور الذي يخاطبه ويطالعه بمثل تلك التحليلات في مسائل العقيدة.

---

[1] سورة الإسراء، الآية: ٩٤.

[2] الزمخشري، الكشاف، ج٢/ص٦٦٥.

[3] الشعراوي، تفسير الشعراوي، ج١٠/ص٦٤٢٦.

obeikan.com

فلكي يوضح الشعراوي حكمة الله – تعالى – في كون رسله بشرًا، نراه يصور تلك الحكمة من خلال المثل التالي، يقول الشعراوي:

«ومثال ذلك: أنت حين ترى الأسد في أي حديقة من حدائق الحيوان، يصول ويجول ويأكل اللحم النيئ المُقَدَّم له من الحارس، أتحدثك نفسك أن تفعل مثله؟ طبعًا لا، لكنك إن رأيت فارسًا على جواده ومعه سيفه، فنفسك قد تحدثك أن تكون مثله»[١]

وهكذا أوضح الشعراوي من خلال ضرب المثل السابق حكمة أن يكون البشر رسولاً، ثم انطلق من خلالها إلى قضية عقدية أخرى مهمة تقتضيها طبيعة الموضوع، فنراه يستحضرها ويضمها إلى معالجته؛ وذلك لحيوية تناولها من خلال هذا الموضوع. وتلك القضية هي أنَّ اتحاد الجنس بين الرسول والمرسَل إليهم، دليل قوي لدحض دعاوى من (ألَّه (عيسى) عليه السلام، و (عزير) عليه السلام، يقول الشعراوي:

«هكذا نجد أنَّ الأسوة تتطلب اتحاد الجنس، ولذلك قلنا: إنَّ الأسوة هي الدليل على إبطال من يَدَّعِي الألوهية (لعزير، أو لعيسى بن مريم) عليهما السلام»[٢]

---

[١] الشعراوي، تفسير الشعراوي، ج١٠/ص٦٤٢٧.

[٢] الشعراوي، تفسير الشعراوي، ج١٠/ص٦٤٢٧.

وفي ذلك أيضًا يقول الرازي: «إنَّ اللّه – تعالى – لو بعث إلى البشر مَلَكًا لكانت الشبهة أقوى في الطعن عليه في رسالته؛ لأنه يخطر بالبال أنَّ هذه المعجزات التي ظهرت، هل هذا المَلَك هو الذي أتى بها من عند نفسه، بسبب أنَّ قوته أكمل وقدرته أقوى؛ فلهذه الحكمة ما بعث اللّه إلى البشر رسولًا إلا من البشر»[1]

وهذه المعالجة من الرازي، التي تأثر الشعراوي بها، هي معالجة مهمة في موضوع إنكار الكفار لبشرية الرسل؛ وذلك لأنَّ القوم الذين يبلغون بالبشر إلى درجة التأليه، لم يفطنوا إلى أنَّ المعجزة التي تصاحب دعوة أي رسول، إنما هي تأييد من اللّه – تعالى – لهم. غير أنَّ هؤلاء الكفار رفضوا أن تقترن المعجزة بالرسول البشر، فأخذوا يتلمسون له القوة التي تجعل منه إلهًا[2] وذلك بالتحايل على إيجاد نسبة بينه وبين اللّه – سبحانه وتعالى – هي نسبة البُنُوَّة، وشأن الألوهية أعز مما يدلي به الجهلة من ولادة وبنوة واتصال وإنسال، سبحانه وتعالى عما يشركون.

---

[1] الرازي، مفاتيح الغيب، ج١٠/ص٥٠٨، ط. دار الغد العربي.

[2] ولقد عبَّر عن هذا المعنى بشكل ساخر الشيخ/ محمد الغزالي في كتابه «عقيدة المسلم» وذلك حول تأليه عيسى بن مريم، من أنه «لم تصادف خرافة من الرواج في العالم مثل الخرافة التي تَعُدُّ عيسى إلهًا لهذا العالم أو شريكًا فيه مع اللّه!» محمد الغزالي، عقيدة المسلم، ص٦٠، ط. الطبعة الثالثة، دار الدعوة.

obeikan.com

إذًا فلقد انتهى الشعراوي إلى أنَّ كون الرسول بشرًا، هو شرط في نجاح الرسالة السماوية وفاعليتها؛ وذلك لأنَّ حياة الرسل هي محل اقتداء أتباعهم بهم.

فالرسل جميعًا «كلامهم حكمة، وحياتهم أسوة، سريرتهم وعلانيتهم سواء»[1]

ويجب الإشارة إلى شيءٍ مهم قبل المُضِيّ قُدُمًا في عرض وتحليل خواطر الشعراوي حول موضوع «شُبَه الكفار حول الرسل من خلال قصة (نوح) عليه السلام » وهو أنَّ شبهة إنكار كفار قوم نوح – عليه السلام – على رسالته لكونه بشرًا، وغيرها من الشُبَه التي وردت في الآية ٢٧ من سورة هود قد رصدها الرازي قبلًا، وتبعه الشعراوي في رصدها، بل ومعالجتها كما سنرى.

فلقد عرض الرازي لشُبَه كفار قوم نوح مجملة في قوله:

«لما حكى عن نوح – عليه السلام – أنه دعا قومه إلى عبادة اللّه – تعالى – حكى عنهم أنهم طعنوا في نبوته بثلاثة أنواع من الشبهات؛ الشبهة الأولى: أنه بشرٌ مثلهم، الشبهة الثانية: كونه ما اتبعه إلا

---

[1] محمد الغزالي، عقيدة المسلم، ص٢٢٠.

الأراذل من القوم...، والشبهة الثالثة: قوله تعالى: (وَمَا نَرَى لَكُمْ عَلَيْنَا مِنْ فَضْلٍ)[1]»[2]

وبالتالي لا ننكر أن يكون من ضمن تسرب اللون الموضوعي عند الشعراوي في أسلوبه هو تأثره بالرازي في كثيرٍ من الأحيان؛ لأنه يُري بعض الباحثين في مجال مناهج التفسير؛ ظهور اللون الموضوعي في تفسير الرازي، ويُؤكِّد ذلك د/ جودة محمد المهدي، الذي يرى أنَّ الإمام/ فخر الدين الرازي قد جسَّد في تفسير العظيم «مفاتيح الغيب» «معالم الوحدة الموضوعية للتنزيل، وأبرز سريان هذه الوحدة في كل سورة بتحليلٍ رائع، يربط فيه أصول الموضوعات بفروعها المتشعبة، فجاء تفسيره موسوعة تحليلية موضوعية في آنٍ واحد...»[3] لذا يُعد تفسير الرازي أحد المرتكزات العلمية في تاريخ التفسير القرآني الكريم؛ التي ظهرت في مجال التفسير الموضوعي.

ولقد تأثر الشعراوي بالقضايا التي يفجرها الرازي، وكذلك طريقته في التفسير، والتي تتجلى عند إشارته للموضوعات المهمة، وتفنيده لأفكارها، وطرحها للمناقشة والمعالجة.

---

[1] سورة هود، الآية ٢٧.

[2] الرازي، مفاتيح الغيب، ج٨/ص٥٠٧-٥٠٨.

[3] د/ جودة محمد المهدي، قصد السبيل في التفسير الموضوعي لآي التنزيل، ج١/ص٣٥.

obeikan.com

الشُّبْهَة الثانية: إنكار الكفار أن أتباع الرسل من الأراذل.

والشُّبْهَة الثالثة: غَضّ الكفار من قدر نوح - عليه السلام - وأتباعه استنادًا لمعايير الجاه والمال.

لقد عالج الشعراوي الشُّبْهَة الثانية والثالثة من منظورٍ اجتماعي، وذلك كالتالي: لقد تناول من خلال وصف الكفار أتباع الرسل بالأراذل، قضية الطبقية في المجتمعات الإنسانية، كأحد الآفات الاجتماعية التي تنم عن فسادٍ حقيقي في فكر هذه المجتمعات، ثم علل أنه بسبب ذلك حينما تقوم أية دعوة للإصلاح يلتف حولها الفقراء (الأراذل) وبعد أن شرح هذه المسألة بشكلٍ عام، نراه قد اتخذها كمقدمة لتخصيص أنَّ دعوات الإصلاح الحقيقية هي دعوات الرسل، وبالتالي فقد انتهى إلى أنَّ هناك فَرْقًا بين دعوة إصلاح الرسل، وبين دعوة أي ثائرٍ عادي.

ومن هنا يقرر الشعراوي احتياج مثل هذه المجتمعات الفاسدة للرسل والرسالات السماوية لتقويمها، ولذلك فهي رسالة الإصلاح الوحيدة لصالح هذا العالم.

ولا بُدَّ من الإشارة هنا إلى أنَّ فحوى هذا الكلام يحمل مبادئ وأفكار أصحاب المدرسة الحديثة في التفسير والفكر الإسلامي؛ وذلك نتيجة لظهور العديد من التيارات الفكرية في العصر الحديث

التي ترفض الفكر الديني، وتريد أن تُحِلَّ العقل البشري مَحَلَّ الشرع الإلهي. وإشارة الشعراوي إلى هذا يُعد موضوعية واضحة، فهو من باب ربط موضوعات القرآن الكريم بالواقع المعاصر، وتلك من أهم سمات اللون الموضوعي في التفسير، فالشُّبْهَة الثانية والثالثة كما حكى القرآن الكريم على لسان كفار قوم نوح – عليه السلام – تتمثل في قولهم لنوح – عليه السلام –: (وَمَا نَرَاكَ اتَّبَعَكَ إِلَّا الَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا[1] بَادِيَ الرَّأْيِ...)[2] والشُّبْهَة الثالثة: (...وَمَا نَرَى لَكُمْ عَلَيْنَا مِنْ فَضْلٍ...)[3]

لقد تناول الشعراوي هاتين الشبهتين مُركِّزًا في تناولهما على الفساد الفكري لهؤلاء القوم، ومن نحا نحوهم، من حيث استرذالهم الضعفاء من المؤمنين وغيرهم. ومؤكدًا أنَّ (نوحًا) عليه السلام «لم ينفِ

---

[1] (رذل): الرذل والرذال المرغوب عنه لرداءته. قال تعالى: (وَمِنْكُمْ مَنْ يُرَدُّ إِلَى أَرْذَلِ الْعُمُرِ) وقال تعالى: (إِلَّا الَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِيَ الرَّأْيِ) وقال تعالى: (قَالُوا أَنُؤْمِنُ لَكَ وَاتَّبَعَكَ الْأَرْذَلُونَ) جمع الأرذل، انظر الأصفهاني، مفردات ألفاظ القرآن، ص٣٥١.
و«الأراذل جمع الجمع، فقيل جمع أرذل، وقيل جمع أراذل، وهم سفلة الناس، ومن لا خلاق له، ولا يبالي ما يقول ولا ما يقال له» انظر الإمام/ عبد الرحمن الثعالبي، الجواهر الحسان في تفسير القرآن، ص١٢٢، تحقيق أبو محمد الغماري الإدريسي الحسيني، ط. دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان.

[2] سورة هود، الآية: ٢٧.

[3] سورة هود، الآية: ٢٧.

obeikan.com

ذلك؛ لأنَّ الذين اتبعوه قد يكونون من الضعاف وهم ضحايا الإفساد؛ لأنَّ القوي في المجتمع لا يقربه أحد»[1]

لقد أشار الشعراوي في كلامه السابق إلى أنَّ تلك النظرة الطبقية في هذا المجتمع – وغيره – لا تنم إلا عن وجود فسادٍ حقيقيٍّ مستشرٍ في قلب هذا المجتمع، ويعاني منه هؤلاء الضعاف. فأراد الشعراوي أن يؤكد من خلال النص القرآني الكريم إثباته لوجود تلك النظرة الطبقية بين أفراد المجتمع الإنساني، وأنها آفة متكررة عبر العصور والأزمان بين كل الأجيال، ومن خلال إثبات الشعراوي أنها آفة اجتماعية مستمرة تنخر في صلب المجتمع الإنساني حتى يستقيم حاله، وحتى يثبت تكرار هذه الآفة التي أثارها كفار قوم نوح كشُبُهَة ضده كرسول؛ يستحضر الشعراوي الآية ١١١ من سورة الشعراء، وهي قول الله تعالى: (...وَاتَّبَعَكَ الْأَرْذَلُونَ)[2] وذلك كي يثبت من خلال النص القرآني تأريخه ورصده لهذه الآفة الاجتماعية السلبية المتكررة، والتي بسببها أنكروا على نوح – عليه السلام – نبوته ورسالته. فلقد كان جُلُّ طعن كفار قوم نوح – عليه السلام – أنَّ

---

[1] الشعراوي، تفسير الشعراوي، ج١٠/٦٤٢٨.

[2] سورة الشعراء، الآية: ١١١.

openelkan.com

من اتبعوا دعوته وآمنوا بها، هم الأراذل أي «الذين هم سفلتنا من الناس، ودون الكبراء والأشراف، فيما نرى ويظهر لنا»[1]

ولقد كان سبب استرذال هؤلاء المؤمنين الضعفاء من قوم نوح - عليه السلام - هو «فقرهم وتأخرهم في الأسباب الدنيوية؛ لأنهم ما كانوا يعلمون إلا ظاهرًا من الحياة الدنيا، فكان الأشراف عندهم من له جاه ومال»[2]

فأراد الشعراوي أن يبطل ما يدعونه من طعنهم في رسالة نوح - عليه السلام - بسبب أنَّ أتباعه من أراذل الناس، فانطلق مؤكدًا أنَّ الرسائل السماوية على مر العصور، وإن كان أكثر أتباعها من الضعفاء هذا لا يعني أنَّ الإيمان لم يجد سبيلًا إلى قلوب الأقوياء، فاستحضر الشعراوي الدليل على ذلك من خلال مواقف إيمان بعض الصحابة بالرسالة المحمدية. يقول الشعراوي: «فالبعض من سادة وأغنياء مكة استجابوا للدعوة المحمدية مثل: أبي بكرٍ الصديق، وعمر بن الخطاب، وعثمان بن عفان، وعبد الرحمن بن عوف رضي اللّه - تعالى - عنهم أجمعين»[3]

---

[1] الطبري، جامع البيان في تأويل القرآن، ج٧/ص٢٨.

[2] الزمخشري، الكشاف، ج٢/ص٣٧٤.

[3] الشعراوي، تفسير الشعراوي، ج١٠/ص٦٤٢٨-٦٤٢٩.

وهكذا في رَدّ الشعراوي على هذه الشُّبْهَة، نراه قد استشهد بإسلام كبار الصحابة الذين كانوا من وجهاء العرب آنذاك؛ ليرد بها على مزاعم الكفار في أتباع الأنبياء، واتخاذهم لها مطعنًا فيهم وفي رسالاتهم. وما قد ذهب إليه الشعراوي سالفًا تتجسد فيه النظرة الموضوعية في التناول، وذلك باستحضاره أحد المواقف التي ظهرت في حياة الدعوة المحمدية، والتي من شأنها أن تطعن في هذه الشُّبْهَة وتردها، وكذلك ربطها بما يحدث في دعوات بعض الأنبياء، ثم بلورتها وصياغتها في قالبٍ واحدٍ؛ وذلك توضيحًا من الشعراوي على وحدة موضوع العقيدة.

بينما رَدَّ القرطبي عليها من منطلق آخر، وهو أنَّ «الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم إنما عابوا عليهم أن يأتوا بالبراهين والآيات، وليس عليهم تغيير الصور والهيئات، وهم يُرسلون إلى الناس جميعًا، فإذا أسلم منهم الدنيء لم يلحقهم من ذلك نقصان؛ لأنَّ عليهم أن يقبلوا إسلام كل من أسلم منهم»[1]

ولقد أشار الشيخ الخولي، وركز على إنجازات هؤلاء الضعاف مع رسلهم، وماذا صنعوا في تاريخ الإنسانية. يقول: «فالقادة الرسل

---

[1] القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، ج٤/ص٣٣٤١.

obeikan.com

والمؤمنون - الضعاف معهم - هم دائمًا أبدًا القوة التي غيرت وجه الدنيا...»[1]

وذلك تأكيدًا منه على نجاح الرسل القادة وأتباعهم الضعاف، الذين لم يؤتوا من قوة الجاه والمال شيئًا في إحداث التغيير في الحياة الدنيا.

وما رصده الشعراوي من إصرار هؤلاء الكفار على تلك النظرة الطبقية، وقياس الأمور من خلالها، هو أمرٌ مناهضٌ لما جاء به الأنبياء، وكذلك خلل بَيِّن في فهم وظيفة الرسل والرسالات. «فالأنبياء ما بُعثوا إلا لترك الدنيا والإقبال على الآخرة، فكيف تجعل قلة المال في الدنيا طعنًا في النبوة والرسالة»[2] فكفار قوم نوح - عليه السلام - ومن نهج نهجهم «لم يفقهوا أنَّ الدنيا بحذافيرها لا تعدل عند الله - تعالى - جناح بعوضة، وأنَّ النعيم إنما هو نعيم الآخرة، والأشرف من فاز به، والأرذل من حرمه»[3]

ولذلك يقرر ابن كثير: «بأنَّ الواقع غالبًا أنَّ من يتبع الحق ضعفاء الناس، والغالب على الأشراف والكبراء مخالفته، كما قال

---

[1] أمين الخولي، من هدي القادة...الرسل، ص٣٩، ط. الهيئة العامة للكتاب، ١٩٨٧.

[2] الرازي، مفاتيح الغيب، ج٨٩/ ص٥٠٨.

[3] الألوسي، روح المعاني في تفسير القرآن العظيم، ج٦/ص٢٣٧.

تعالى: (وَكَذَلِكَ مَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَى آثَارِهِمْ مُقْتَدُونَ)[1] »[2]

ويواصل الشعراوي رده على شُبَه كفار قوم نوح بنظرته الموضوعية، فنراه يعمم القضية، ويخرج بها إلى نطاق الواقع من خلال التجربة الإنسانية، والقضايا التي يئنُّ منها الواقع الإنساني، ونراه يلجأ إلى المعالجة الاجتماعية لرد هذه الشُبَه، فهو يعتبرها نموذجًا من نماذج الفكر الفاسد الذي تعالج مثله الرسالات الإلهية. فينتهي الشعراوي موضحًا - من خلال هذا الفساد الفكري - قيمة دعوات الإصلاح التي تنقذ الضعفاء، ثم حَصْره تلك الدعوات في الرسالات الإلهية التي تحويها المناهج الإلهية، ويقودها أنبياء اللّه تعالى:

«الذين تحكموا – وما زالوا – يتحكمون حتى اليوم في عقول الدنيا وقلوبها، وهم الذين خطوا بالحضارة – كما يصف التاريخ – أوسع الخطوات وأجرأها، وقادوا العالم منذ عصور سحيقة فسددوا خطاه نحو النور، وأبلغوه من التحضر شأوًا بعيدًا إذ أخذوا بأيدي أممهم إلى حياة الاستقرار والرقي...»[3]

---

[1] سورة الزخرف، الآية: ٢٣.

[2] ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، ج٤/ص٢٥٠، ط. دار الشعب.

[3] أمين الخولي، من هدي القرآن القادة الرسل، ص٣٤.

ويقول الشعراوي في وصفه لدعوات الإصلاح بشكلٍ عام أنَّ: «الغالب في دعوات الإصلاح أنه يستجيب لها المطحونون بالفساد، هؤلاء الذين يشعرون بالغليان في مراجل الألم بسبب الفساد، وما أن يظهر داعية إلى الإصلاح، يريد أن يزحزح الفساد يلتفون حوله، ويتعاطفون معه»[1] فالشعراوي بعد أن عمم القضية وحللها تحليلًا اجتماعيًّا بحديثه عن «دعوات الإصلاح» واستجابة الضعفاء - المغبونين حقوقهم - لها نراه يخصص هذا المعنى، ويصرفه إلى نوعٍ محددٍ من دعاة الإصلاح، ألا وهو رسل الله - تعالى - وبالتالي من سار على دربهم من دعاة الإصلاح الذين يستهدون هذا الصلاح من خلال المناهج الإلهية. يقول الشعراوي: «إذن فكل رسول يأتي إنما يأتي في زمن فساد، وهذا الفساد ينتفع به بعض الناس، وطغيان يعاني منه الكثيرون الواقع عليهم الفساد والطغيان، ويأتي الرسول وكأنه ثورة على الطغيان والفساد؛ لذلك يتمسك به الضعفاء، ويفرحون به، وتلتف قلوبهم حوله»[2]

إذن يَعتبر الشعراوي أنَّ رسل الله - تعالى - هم «دعاة الإصلاح» الحقيقيين، الذين أرسلهم الله - تعالى - لمحو الفساد

---

[1] الشعراوي، تفسير الشعراوي، ج١٠/ص٦٤٢٨-٦٤٢٩.

[2] الشعراوي، تفسير الشعراوي، ج١٠/ص٦٤٢٩.

الذي يطرأ على المجتمعات بما يحملونه من مناهج راشدة؛ لذلك نراه يفرق بين الرسول والثائر العادي. يقول الشعراوي: «يجيء الرسول ليقود غضبة على فساد الأرض، ولينهي هذا الفساد. وهي غضبة تختلف عن غضبة الثائر العادي من الناس، فالثائر من الناس يرى من يصفق له من المطحونين بالفساد. وآفة الثائر من البشر شيء واحد، هي أنه يريد أن يستمر ثائرًا، ولكن الثائر الحق هو الذي يثور ليهدم الفساد، ثم يهدأ ليبني الأمجاد»[1]

ثم ينتهي الشعراوي من هذه الشبهة إلى أنَّ «المنتفعون بالفساد يقولون: إنَّ أتباعك هم أراذلنا، وكأنَّ هذا القول طعن في الرسول، لكنهم أغبياء؛ لأنَّ هذا القول دليل على ضرورة مجيء الرسول ليخلص هؤلاء الضعاف. إذن فقد كان قول الكافرين من ملأ قوم نوح: (وَمَا نَرَاكَ اتَّبَعَكَ إِلَّا الَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا...)[2] هو قول يؤكد وجود الفساد في هذا المجتمع، وأنَّ الضعاف المطحونين من الفساد قد اتبعوا (نوحًا) عليه السلام»[3]

---

[1] الشعراوي، تفسير الشعراوي، ج١٠/ص٦٤٢٩.

[2] سورة هود، الآية: ٢٧.

[3] الشعراوي، تفسير الشعراوي، ج١٠/ص٦٤٢٩-٦٤٣٠.

obeikan.com

ولا بُدَّ من وقفة أمام مصطلح «دعوات الإصلاح» الذي استعمله الشعراوي. فهو مصطلح شاع استعماله في العصر الحديث مقترن بظهور حركات فكرية معينة، تجابه وتعادي الفكر الديني. ولذلك يبدوا أنَّ هناك ثمة رواج لقضية أنَّ الرسل على مر العصور هم «دعاة الإصلاح» عند كثير من علماء ومفكري الإسلام في عصرنا الحاضر؛ بسبب ظهور هذه التيارات الفكرية؛ ولذلك انصب تركيزهم على إظهار أنَّ دعوة الإصلاح الحقيقية هي النابعة من المنهج الإلهي الذي حمله رسل الله تعالى.

ولذلك فقد قاربت أفكار الشعراوي في هذا الموضوع أفكار الشيخ/ أمين الخولي وغيره.

ويمكن القول بأن هناك تأثر واضح بالشيخ/ أمين الخولي، والمدرسة الفكرية التي ينتمي إليها. فلقد ألَّف أمين الخولي كتابًا أسماه «من هدي القادة...الرسل» ويحمل هذا العنوان العديد من الأفكار والقضايا التي تدعم ما سعى الشعراوي إلى بثه من خلال خواطره. فقد أشار أمين الخولي إلى أنَّ دعوات الإصلاح قد خلت من نتائجها الإيجابية؛ لأنها «تسلم زمامها لقادة ليسوا رسلًا، ولا أصحاب رسالات...»[1]

---

[1] أمين الخولي، من هدي القرآن القادة...الرسل، ص٣٩.

ثم هو يفرق بين القادة الجياد – كما أسماهم – الذين يستمدون قوتهم أولًا من المنهج الإلهي، لا من أفكار أهل الأرض، وبين القادة الذين «تخلقهم الحاجة، ويمكن لهم جنوح الجماعة إلى السيطرة، فهؤلاء مُقفرة قلوبهم من روح العقيدة وقوة الإيمان، فلا بُدَّ لهم بقوة هذا المعين الروحي الطاهر...»[1]

ورأينا الشعراوي قد أكد على أنَّ الرسول يجيء «ليقود غضبة على فساد الأرض، ولينهي هذا الفساد...ليخلص هؤلاء الضعاف»[2]

فقضية أنَّ «دعاة الإصلاح» الحقيقيين هم حملة المنهج الإلهي، وأنَّ قادة الإصلاح في العالم هم رسل الله تعالى، هي قضية تحمل معنًا جليًّا، وبعدًا فكريًّا عند علماء الإسلام في القرن التاسع عشر، وكذا في القرن العشرين، وهو ما دفع بهم إلى ترديد مثل تلك العبارات ذاك الإيحاءات الخاصة، مثل «دعاة الإصلاح» «القادة الرسل» ووصف رسالاتهم «برسالات التحرير» وما شابه ذلك.

وحيث أنَّ الشعراوي ينتمي إلى هذا الجيل، رأينا في تحليله السابق إشارات إلى أنَّ فكرة الإصلاح لا تكون إلا بالمنهج الإسلامي.

---

[1] أمين الخولي، من هدي القرآن القادة...الرسل، ص٣٨.

[2] الشعراوي، تفسير الشعراوي، ج١٠/ص٦٤٢٩.

ولقد بدأ هذا الفكر عند كثير من علماء هذا الجيل، وذلك امتدادًا للطهطاوي[١] ومحمد عبده[٢] والأفغاني[٣]...ومن نحا نحوهم من علماء القرن العشرين أمثال أمين الخولي وعبد الحليم محمود[٤] وغيرهم. فلقد نبع هذا الموقف من علماء ومفكري الإسلام، وهو أنَّ الإصلاح لا يكون إلا بالمنهج الإلهي «بسبب ظهور العديد من التيارات الفكرية والنظريات العقلية في القرن الحالي، والتي يعدها أصحابها أنها دعوات إصلاحية تنويرية لصلاح المجتمع»[٥]

وتلك النظريات العقلية هي من وحي الفكر البشري الوافد أغلبه علينا من ثقافات ليس بيننا وبينها سبيل، ولذا نجد المعاصرين من علماء الإسلام يؤصلون لفكرة أنَّ الإصلاح لا يكون إلا من وحي المنهج الإلهي، الذي لا يخضع لأهواء أو تيارات فكرية؛ وذلك سعيًا

---

[١] الأعمال الكاملة لرفاعة الطهطاوي، دراسة وتحقيق د/ محمد عمارة، ط. المؤسسة العربية، بيروت ١٩٧٣م.

[٢] محمد عبده، رسالة التوحيد، انظر ص١٠٣، ١١١، فصل «حاجة البشر إلى الرسالة»، ط. عيسى البابي الحلبي، ط. العاشرة ١٣٦١هـ.

[٣] الأعمال الكاملة لجمال الدين الأفغاني، دراسة وتحقيق د/ محمد عمارة، ط. القاهرة عام ١٩٨٧، راجع هذه الدراسة.

[٤] د/ عبد الحليم محمود، الإسلام والإيمان، انظر ص١٠٧، ط. دار الغريب، القاهرة.

[٥] د/ محمد رجب البيومي، محمد متولي الشعراوي جولة في فكره الموسوعي الفسيح، راجع ص١١٦، ط. دار التراث الإسلامي.

منهم إلى تعبئة فكرية وروحية نحو القيم الإيمانية، ودحضًا لتلك القيم الغربية الوافدة علينا، والتي طالما انطوت على فسادٍ فكريٍ عظيم...؛ والذي بدوره يناقض أسس الدين ومبادئه، ولخلو دعوات الإصلاح تلك من أسس القيم أصبحت «تسمع – يا شرق – عن حديث النهوض والإصلاح حتى تتصدع، ولا ترى على طول الزمن أثرًا ...جعجعة ولا طحن، وقول ولا فعل...قد عجز المتصدرون فيك، حتى عن بث روح التقليد والمحاكاة في أهلك ليسلكوا طرقًا معبدة سلكها الأمم قبلهم، ويسيروا في سبل ممهدة تقدمت فيها الشعوب أمامهم...»[1]

إذن تلك الدعوات تناهض المنهج الإلهي، ولذا وجدت في مقدمة كتاب «ردًّا على الملاحدة والعلمانيين» والتي كتبها الأستاذ/ محمد عبد اللّه بدر، ولخص فيها أهداف العلمانية، فقال: «إنَّ العلمانية جاءت لتكون الوعاء الذي يحتضن كل التيارات الفكرية التي تناهض الدين من وجودية وماركسية وإباحية، ولم تتهم غير الإسلام في كل ما تهتف به»[2] ولقد كان هذا الكلام من وحي ما أدلى به الشعراوي

---

[1] أمين الخولي، من هدي القرآن القادة...الرسل، ص٤٧.

[2] أ/ عطية الدسوقي عمر، ومحمد عبد الله بدر، الرد على الملاحدة والعلمانيين، ص١٦، ط. دار التراث الإسلامي.

في قضية العلمانية؛ لأنَّ تلك المقدمة كانت ضمن كتاب «الرد على الملاحدة والعلمانيين» والذي جمع فيه الشعراوي خواطره وأفكاره حول تلك القضية. وقد كان هذا الكتاب أيضًا هو ما استند إليه د/ محمد رجب البيومي في كتابه[1] الذي ألَّفه حول فكر الشعراوي.

ولقد أراد الشعراوي كغيره من معاصريه أن يرسخ في الأذهان أنَّ الإصلاح الحقيقي يكمن في المنهج الإلهي، والذي قام بتبليغه جميع رسل الله تعالى. ولذلك تلمح دومًا ردود الشعراوي المتوالية والسريعة، والمؤثرة على من يتشدقون باحتياج الإسلام إلى ما أسموه بالتنوير. يقول الشعراوي: «إنَّ التنوير كان طابعًا لحضارة أوروبا فترة انتقالها من الظلمة والتأخر، ولذلك قرنوا التنوير بإلغاء سلطة الدين والكنيسة، وهم يقولون أنَّ الفلسفة هي التي قادت النهضة الأوربية، فالواقع أنَّ تسلط الكنيسة – حين حجرت على العقول – كان الباعث لديهم على إزالة هذا التسلط»[2] إذن فأية دعوة إلى الإصلاح في أمتنا لن تجد لها جدوى إلا إذا كانت من صميم المنهج

---

[1] د/ محمد رجب البيومي، محمد متولى الشعراوي جوله في فكره الموسوعى الفسيح، ص١١٤.

[2] د/ محمد رجب البيومي، محمد متولى الشعراوي جولة في فكره الموسوعي الفسيح، ص١١٠.

الإلهي «فالدين هو السبب المفرد لسعادة الإنسان...يذهب بمعتقديه في جواد الكمال»[1] بل ويرى الأفغاني: «أنَّ العلاج الناجح لانحطاط الأمة الإسلامية، إنما يكون برجوعها إلى قواعد دينها، والأخذ بأحكامه على ما كان في بدايته، فهي متأصلة في النفوس، والقلوب مطمئنة إليه»[2]

وبعد تلك الفقرة من كلام العلامة جمال الدين الأفغاني، يبدو للعيان تأثر الشعراوي بهذه المدرسة الحديثة، وبالتالي رُوَّادها الطهطاوي ومحمد عبده والأفغاني، وكل من تبعهم على هذا المنوال.

فالشعراوي بحديثه عن الفساد الذي يطرأ على المجتمعات نتيجة لوجود العديد من الآفات الفكرية و الاجتماعية، التي بدورها تؤكد «احتياج المجتمعات إلى الرسل»[3] لتقويم هذا الفساد ينحى منحى أسلافه من السادة العلماء الذين نفوا أن يحل العقل الإنساني محل الشرع الإلهي، وأنَّ تحكيم الشريعة الإسلامية فيما يطرأ على المجتمع من فساد خلقي وأهواءٍ فاسدةٍ هو الخضوع الكامل للّه

---

[1] الأعمال الكاملة لجمال الدين الأفغاني، دراسة وتحقيق د/ محمد عمارة، ص٣٠.

[2] الأعمال الكاملة لجمال الدين الأفغاني، دراسة وتحقيق د/ محمد عمارة، ص٣٠.

[3] محمد عبده، رسالة التوحيد، راجع ص١٢١-١٢٢.

تعالى، إذن فالسبيل الوحيد لإصلاح الأمة هو ما قرره «الطهطاوي والأفغاني من ضرورة إسلامية المشروع الحضاري النهضوي، أكده الإمام/ محمد عبده عندما انتقد النزعة الوضعية المادية للنموذج الحضاري الغربي، ولفت الأنظار إلى وسطية الإسلام، التي هي النموذج الملائم – ملاءمة الفطرة السوية – لإنهاض المسلمين...»[١]

وننتهي من ذلك كله إلى أنَّ آراء العلماء كلها، والتي تأثر بها الشعراوي، ألا وهي ضرورة الالتزام بالمنهج الإلهي، والعودة إليه لإصلاح الأمة من عثراتها الفكرية والاجتماعية وغيرها من القضايا، ومنها قضية الطبقية، وما ينتج عنها من مشاكل اجتماعية فادحة؛ والتأكيد على أن المنهج الإلهي يقدم الحل العادل للخلاص من الظلم الاجتماعي، وإقامة العدالة الاجتماعية، وتقريب الفوارق بين الأفراد والطبقات،وذلك كله في صورة متكاملة متشعبة تشمل فروع الحياة بأسرها.

ولقد جسَّد لنا هذا النموذج الكافر من ملأ قوم نوح – عليه السلام – الذين طعنوا في نبوته ورسالته لكون أتباعه من أراذل الناس؛ قضية عقدية اجتماعية؛ استثمر الشعراوي أبعادها وربطها بالواقع

---

[١] د/ محمد عمارة، الشريعة الإسلامية والعلمانية الغربية، ط. دار الشروق، ص٣٠.

المعاصر، فانطلق يصحح المفاهيم التي تبنتها بعض العقول المعاصرة، والتي وفدت إلينا؛ فأشار الشعراوي إلي أنَّ الإصلاح الحقيقي لعلاج مثل تلك الآفات الاجتماعية هو التمسك بقيم المنهج الإلهي؛ وذلك لأنَّ كفار قوم نوح - عليه السلام - تركوا القيم وتمسكوا بالقشور؛ وبالتالي فإنَّ الإصلاح الحقيقي في كل زمان ومكان يكمن في المنهج الإلهي، وأنَّ من يناهض هذا المنهج - بأية صورة - هو مناهض وطاعن في الرسل والرسالات؛ لأنه يعطل عملها، ويعوقه أو يصفه بالرجعية والاحتياج إلى التنوير. فالمنهج الإلهي هو كلمة اللّٰه - تعالي - لأهل الأرض السارية والمؤثرة والصالحة لك زمان ومكان.

لقد فجرت قضية شُبَه الكفار حول الرسل العديد من القضايا لدى الشعراوي، وذلك مثل دعوات الإصلاح، واستجابة الضعفاء لها، وانتهاء الشعراوي إلى الإشارة بأنَّ دعوات الإصلاح الحقيقية هي دعوات الرسل، وأنَّ دعاة الإصلاح الحقيقيين هم رسل اللّٰه تعالى. ثم يتجه الشعراوي إلى تعميق القضية وتفعيلها، وذلك من خلال مواصلة معالجتها في أطر واقع التجربة الإنسانية. فيؤكد الشعراوي على أنَّ هذا الملأ الكافر من قوم نوح - عليه السلام - «قد حكم بأنَّ الضعاف أراذل بالمقاييس الهابطة، لا بالمقاييس الصحيحة»[1]

---

[1] الشعراوي، تفسير الشعراوي، ج١٠/ص٦٤٢٩.

فلقد وصف الشعراوي مقاييس كفار قوم نوح بأنها مقاييس مختلة، تدفع بأصحابها إلى سوء تقييم الأمور، ومن ذلك عكسهم الحقائق، إذ قصروا حمل الرسالة على أحد كبراء القوم، وإلا فلا لهذه الرسالة، ولا لهذا الرسول. وصبوا غيظهم في وصفهم الضعفاء الذين تبعوا نوحًا – عليه السلام – بأنهم أراذل، وذلك عين الضلال «لأنَّ الرفعة في الدين ومتابعة الرسول لا تكون بالشرف ولا بالمال والمناصب العالية، بل للفقراء الخاملين، وهم أتباع الرسل، ولا تضرهم خسة صنائعهم إذا حسنت سيرتهم في الدين»[1]

إذن فذلك الوصف من كفار قوم نوح – عليه السلام – هو بُعد عن الجوهر الحقيقي لقيمة الإنسان الذي حافظ عليه المنهج الإلهي، وطبقه رسل الله – تعالى – بين أتباعهم.

وما فعله هؤلاء الكفار – ومن سار على نهجهم – هو جهل واضح بوظيفة هذا المخلوق الذي استخلفه الله – تعالى – أرضه ليعمرها بمنهجه، وأنَّ ما يحمله هذا المنهج من قيم، لا صلة له بمالٍ أو جاهٍ أو سلطانٍ أو نفوذ، «فالفضيلة المعتبرة عند الله ليست إلا بالعلم والعمل»[2]

---

[1] الخازن، لباب التأويل في معاني التنزيل، ج٢/ص٣٢٨.

[2] الرازي، مفاتيح الغيب، ج٤/ص٥٠٨.

obeikan.com

ويواصل الشعراوي حديثه عن المقاييس التي لجأ إليها الضعفاء في تقييم دعوة نوح – عليه السلام – يقول الشعراوي: «بل قاس الضعيف من هؤلاء الأمر بالقلب، الذي تعقل وتبصر، وباللسان الذي أعلن الإيمان؛ لأنَّ الإنسان بأصغرية قلبه ولسانه»[1] وفي هذا يقول الشيخ/ عبد الكريم الخطيب أنه كان على هذا الملأ الكافر «أن ينظروا في وجه الدعوة التي يَدْعُوهُم إليها رسول اللّه...قبل أن ينظروا في وجه هذا الرسول...فإذا كانت دعوة فيها خيرهم ورشدهم، كان من الحكمة والرأي أن يقبلوها، ولا ينظروا فيما وراءها، وإلا كان لهم أن يقفوا منها الموقف الذي يدلهم عليه العقل والرأي»[2] وما أدلى به الشعراوي سابقًا كان تمهيدًا منه للصعود بالفكرة إلى معنى أكبر يقتضيه الواقع الإنساني، ألا وهو حكمة التكافل بين أفراد المجتمع. ويلجأ إلى استخدام المثل البسيط لتوضيح معالم القضية. يقول الشعراوي: «الضعفاء هم تتمة السيادة...فلو امتنع هؤلاء الذين يقال عنهم «أراذل» عن خدمة من يقال لهم «سادة» لذاق السادة الأمرين، فهم الذين يقدمون الخدمة»[3]

---

[1] الشعراوي، تفسير الشعراوي، ج١٠/ص٦٤٣١.

[2] عبد الكريم الخطيب، التفسير القرآن للقرآن، ج٢/ص١١٣٠، ط. دار الفكر العربي.

[3] الشعراوي، تفسير الشعراوي، ج١٠/ص٦٤٣١.

ومن ألوان ظهور ملامح التفسير الموضوعي عند الشعراوي عروجه إلى مثل هذا التحليل السابق، وصعوده بالفكرة من مجرد تناوله لشُبَه الكفار حول الرسل إلى الاستفادة بمدلولاتها الاجتماعية..مما يئن منه ضعاف المجتمعات؛ أصحاب المهن البسيطة. وأراد الشعراوي بذلك توضيح فلسفة التواصل والتكافل بين أفراد المجتمع بمختلف مشاربه، وتوضيحه لعلاقة الاحتياج، بل وفلسفتها من حيث حسن الاجتماع. يقول الشعراوي: «لو لم يصنع النجار أثاث البيت لما كانت هناك بيوت مؤثثة، ولو امتنع العمال عن الحفر والبناء لما كانت هناك قصور مشيدة...وكل خدمات هؤلاء الضعاف تصب عند الغني أو صاحب المال أو الجاه»[1]

وتلك إشارة من الشعراوي في مجال الإصلاح الاجتماعي من جهة. وأيضًا صلة هذا الإصلاح بالمنهج الإلهي من جهة أخرى. ذلك المنهج الذي نظم العلاقات جميعها، والتي هي في أصولها مبنية على هذا التواصل والتكامل والمشاركة بين بني الإنسان، وهذا من مقتضيات الحياة.

ولا يخفى على المتصدي لكلام الشعراوي السابق سيادة الطريقة الوعظية، والإرشادية على أسلوبه. ومثل هذا التوجه في

[1] الشعراوي، تفسير الشعراوي، ج١٠/ص٦٤٣١-٦٤٣٢.

Obeikan.com

الخطاب هو توجه مباشر لجمهوره؛ لكي يصحح نظرة المجتمع إلى ضعافه، الذين ليس لهم مال أو جاه أو سلطان؛ وذلك لأنه من أسس الرسالات السماوية تنظيم تلك العلاقات بين الناس، وتقييمها التقييم الذي يهدي إلى أنَّ قيمة الإنسان فيما يُحيه في نفسه من فضائل وأخلاق كريمة، ليس في صورته وما يملك من جاه أو مال أو سلطان؛ لأنَّ مثل هذا الفساد الفكري يقود إلى «الجور والظلم للغير، فيستبد بما يشتهي، فيقع التنازع، ويختل أمر الاجتماع...»[١]

ويتضح دائمًا عند الشعراوي في طريقة تناوله ربط ما يعرض له من موضوعات خاصة بالعقيدة أو التكاليف أو الأخلاق بالمجتمع والواقع الإنساني. وتلك أحد أساليب الطريقة الموضوعية في التفسير القرآني الكريم. يقول محمد باقر الصدر أنَّ «نتائج التفسير الموضوعي مرتبطة دائمًا بتيار التجربة البشرية؛ لأنها تمثل المعالم والاتجاهات القرآنية لتحديد النظرية الإسلامية بشأن موضوع من مواضيع الحياة»[٢]

---

[١] محمد الحسيني الظواهري، التحقيق التام في علم الكلام، ص١٥٣-١٥٤، ط. مطابع الأزهر الشريف.

[٢] محمد باقر الصدر، التفسير الموضوعي والفلسفة الاجتماعية في المدرسة القرآنية، ص٢٧.

(...وَمَا نَرَى لَكُمْ عَلَيْنَا مِنْ فَضْلٍ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَاذِبِينَ)[1]

ويواصل الشعراوي حديثه عن مضمون التواصل والتكافل الاجتماعي، من خلال شرحه للشُّبْهَة الثالثة. ويعرض الشعراوي من خلال تفسيره لتلك الشُّبْهَة، آفة اجتماعية أخرى ألا وهي اعتراض الكفار على حكمة الله – تعالى – في تقسيمه الأرزاق. وتلك الشُّبْهَة لطالما لاكتها ألسن الكفار على مر العصور، وهو ما أثبته القرآن الكريم في رصده للعديد من مواقف الكفرة المعاندة لرسل الله – تعالى – حتى أصبحت حائلًا بينهم وبين قبول دعوة الله – تعالى – لهم، التي يحملها رسله الذين اصطفاهم من خلقه لحمل أمانة الدعوة. وفي ذلك يقول الشعراوي: «ويلفتنا الحق سبحانه وتعالى إلى الآفة التي تنتاب بعض المجتمعات حيث يذكر لنا ما قاله الكافرون: (وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ (٣١) أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَةَ رَبِّكَ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُمْ مَعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِيَتَّخِذَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا سُخْرِيًّا)[2]»[3]

---

[1] سورة هود، الآية: ٢٧.

[2] سورة الزخرف، الآيتان: ٣١، ٣٢.

[3] الشعراوي، تفسير الشعراوي، ج١٠/ص٦٤٣٢.

وتشير هذه الآية التي استحضرها الشعراوي إلى «رحمة اللّه – تعالى – التي يقسمها القسمة النافعة، ويهب الرجال منها ما هو في حساب البطولة، ووزن العظمة خير مما يجمعون»[1] ويستثمر الشعراوي ما تحمله تلك الشُّبْهَة من أفكار، فينطلق معها معالجًا إياها. وتلك طريقة تتسم باللون الموضوعي في التناول، وهي الخروج من الحيز الذي يعبر عنه منطوق الآية إلى آفاق أرحب وأوسع تمتد الآية الكريمة إليه وإلي غيره.

ثم يتجه الشعراوي إلى تصحيح مفهوم الأفضلية، من خلال توضيحه حكمة اللّه – تعالى – في تقسيم الأرزاق. يقول الشعراوي: «فالحق سبحانه وتعالى هو الذي قسَّم المعيشة، وآفة الحكم أن ننظر إلى المرفوع على أنه الغني، لا فليس المرفوع هو الغني، بل هو كل ذي موهبة ليست في سواه، وما دام مرفوعًا في مجال، فهو سيخدم غيره فيه، وغيره سيخدمونه فيما رفعوا فيه؛ لأنَّ المسألة أساسها التكامل»[2]

لقد أكد الشعراوي على أنَّ الأفضلية الحقيقية – وهي مواصلة كذلك للمعالجة الاجتماعية، التي استغل الشعراوي القصة بأحداثها

---

[1] أمين الخولي، من هدي القرآن القادة...الرسل، ص٤٦.

[2] الشعراوي، تفسير الشعراوي، ج١٠/ص٦٤٣٢.

obeikan.com

في توظيفها لتوجيه الجمهور نحو طيب الأخلاق في المجتمع الذي يحيون فيه - متمثلة في التميز بالمواهب والقدرات الخاصة التي يمنحها الله - تعالى - لخلقه. وفي طي هذا الكلام رَدّ لشُّبَهَة الكفار كذلك حول مسألة أنَّ القيادة ليست بالمال أو الجاه، وبالتالي فالأفضلية ليست بهما كما تقررون؛ ولذا يصف أمين الخولي القادة الرسل - كما أسماهم - بأنهم «يعتمدون على نفوذ شخصي داخلي يصدر عن مزايا نفسية حقيقية، على حين لا يعتمد الآخرون إلا على نفوذ سطحي خارجي، يصدر عن مزايا شكلية ظاهرية كاذبة»[1]

إذن فإنَّ ما أراد الشعراوي إثباته هو حكمة هذا التمايز بين الناس جميعًا؛ وذلك حتى التكامل بين أفراد المجتمع. وبهذا التحليل يَردُّ الشعراوي شُبَه الكفار حول الرسل، وكذلك يوجه عامة الناس إلى ضرورة تصحيح أفكارهم تجاه بعضهم البعض؛ حتى لا يطرأ الفساد إلى مجتمعاتنا، كما استشرى قبلًا بين صفوف المجتمعات المشركة، التي كانت تنأى عن رسل الله - تعالى - حملة المنهج الإلهي، بما يمثلونه من أفكار ومفاهيم خاطئة حالت بينهم وبين قبول دعوة الله تعالى. وهذا المضمون الذي سعى الشعراوي إلى

---

[1] أمين الخولي، من هدي القرآن القادة...الرسل، ص٤٣.

توضيحه، يلقي بظلاله أيضًا حول قضية أرباب الإصلاح في العصر الحديث، الذين يدلون بأفكارهم التنويرية – كما يدعي أصحابها – ضاربين عرض الحائط بما جاء به رسل الله تعالى. وبالتالي فدعوات الإصلاح التي يدعون لها في عمومها خالية من القيم الروحية، التي دعا إليها رسل الله تعالى، وهذا ما أراد الشعراوي أن يشير من وحيه إلى أنَّ هذا يُعد من قبيل الطعن في الرسل والرسالات في العصر الحديث حول الرسل. ولهذا نجده يحصر قضية الإصلاح في نطاق المنهج الإسلامي، وأيضًا مصطلح «دعاة الإصلاح» هو لقب لا يليق إلا برسل الله تعالى، ومن نحا نحوهم وهذا كله من فكر المدرسة الحديثة كما رأينا.

وخلاصة هذا الفصل كالتالي:

لقد تناول الشعراوي موضوع «شُبَه الكفار حول الرسل» من خلال خواطره حول المشهد الذي ورد في سورة هود من قصة نوح – عليه السلام – والذي حوى عدة شُبَه أنكرها الملأ الكافر من قوم نوح – عليه السلام – واتخذوها طعنًا في نبوته ورسالته.

obeikan.com

ولقد عالج الشعراوي هذا الموضوع من خلال العناصر التالية:

(أ) شبهة إنكار الكفار لبشرية الرسل:

لقد تناول الشعراوي معالجة هذه الشبهة من خلال مناقشته لحكمة كون الرسل بشرًا، فحدثنا عن ضرورة اتحاد الجنس بين الرسول والمرسل إليهم، حتى تصلح الأسوة، ويصلح البلاغ عن اللّٰه تعالى.

ولقد استعان على بيان ذلك بالشواهد القرآنية والتحليل المبسط الذي لجأ فيه إلى ضرب المثل لِيَتَيَسَّر على الجمهور فَهْم هذه المسألة العقدية.

ثم ينتقل بعد هذا إلى توضيح أنَّ اتحاد الجنس بين الرسول والمرسل إليهم، هو وقاية كبيرة لسد العديد من الشُبَه وصدها، فهي دليلٌ مهمٌ لدحض دعاوى من ألَّه عيسى – عليه السلام – والرجل الصالح عزير.

ولا بُدَّ من الإشارة هنا إلى نقطةٍ مهمة في طريقة تناول الشعراوي، فهو حينما يتناول موضوعًا ما يبحث أولًا في النص القرآني عما ورد عنه في موضعٍ آخر؛ وذلك حتى يستكشف موقف القرآن الكريم منه، وتتجلى في هذه الطريقة ظهور اللون الموضوعي لديه، مع مراعاة أنَّ الشعراوي لا يجمع جمعًا إحصائيًّا، بل ينتقي

من الآيات الواردة حول هذا الموضوع أكثرها وضوحًا؛ وذلك نظرًا لأنه لا يكتب تفسيرًا، بل يلقي به عبر أجهزة الإعلام المسموعة والمرئية، فلا بُدَّ وأن يتوافر في إيقاع شرحه السرعة مع الدقة، وعدم الملل، ومراعاة الحفاظ على قدرة استيعاب المتلقي.

(ب) شُبَهة إنكار كفار قوم نوح - عليه السلام - أنَّ متبعيه من الأراذل:

ولقد عالج الشعراوي هذه الشبهة من منظورٍ اجتماعي، وذلك في إطار ربط موضوعات القرآن الكريم بواقع المجتمع المعاصر، وتلك من أهم سمات اللون الموضوعي في التفسير، فكما أوضح محمد باقر الصدر، من أنَّ «نتائج التفسير الموضوعي مرتبطة دائمًا بتيار التجربة البشرية» ولهذا نرى الشعراوي قد أشار إلى أنَّ السبب الحقيقي في التفاف الفقراء حول الرسل، سواء نوح - عليه السلام - أو أي نبي من أنبياء الله - تعالى - وحول أية دعوة من دعوات الإصلاح، ما هو إلا لوجود فساد مستشرٍ في قلب هذا المجتمع، يئنُّ منه الضعاف الذين وُصِفُوا بأنهم أراذل، ومن هنا يظهر احتياج مثل هذه المجتمعات «لرسول يجيء ليقود غضبة على فساد الأرض، ولينهي هذا الفساد»

وانطلاقًا من أنَّ الفقراء يلتفون حول أية دعوة للإصلاح تظهر في المجتمع؛ نرى الشعراوي يتوسع في تناول القضية، فبعد أن حدثنا

عن دعوات الإصلاح بشكلٍ عامٍ عاد فخصص أنَّ دعوات الإصلاح الحقيقية هي المناهج السماوية، وَرُوَّاد الإصلاح الحقيقيين هم رسل اللّه تعالى؛ ولذلك أشار إلى الفرق بين الرسول المرسل من قبل اللّه – تعالى – وبين الثائر العادي، ومما يجدر الإشارة إليه أنَّ فحوى كلام الشعراوي السابق بدا فيه تأثره بآراء أغلب المفسرين والمفكرين الإسلاميين في العصر الحديث، الذين تناولوا الحديث عن دعوات الإصلاح التي ظهرت في العصر الحديث، وتأكيدهم على أنَّ دعوات الإصلاح الحقيقية هي المناهج الإلهية، وأنَّ دعاة الإصلاح الحقيقيين هم رسل اللّه تعالى، ويُعد هذا الفكر امتدادًا للطهطاوي ومحمد عبده والأفغاني، ومن نهج نهجهم كأمين الخولي وغيره، ولقد أوضحت هذا بالتفصيل في موضعه.

ولقد كان هذا الاتجاه من هؤلاء الرواد، بسبب ما واجهه الفكر الإسلامي من العديد من التيارات والمذاهب الفكرية التي تريد أن تُحِلَّ العقل البشري مَحَلَّ الشرع الإلهي؛ ولذلك فقد أشار الشعراوي إلى دعوات الإصلاح بشكلٍ غير مباشر في التوجيه والوعظ، ولكن سياق خواطره يدل على ما يحمله من معانٍ؛ وذلك لأنَّ هذه القضية تُعَدُّ من قبيل الطعن في الرسل والرسالات في العصر الحديث، ويُعد هذا أيضًا من ملامح الموضوعية عند الشعراوي، وهو ربط موضوعات القرآن الكريم بما يواجهه الإسلام في الواقع المعاصر.

(ج) وشبهة إنكارهم التي تمثلت في قولهم: (...وَمَا نَرَى لَكُمْ عَلَيْنَا مِنْ فَضْلٍ...):

ولقد عالج الشعراوي هذه الشبهة كذلك من منظورٍ اجتماعيٍّ موظفًا في بيان ذلك الشواهد القرآنية، وضرب الأمثلة البسيطة لتوضيح القضية، فتناول في هذه القضية اعتراض الكفار على حكمة الله – تعالى – في تقسيم الأرزاق، حتى لقد كانت حائلًا بينهم وبين قبول دعوة الله – تعالى – لهم التي يحملها رسله.

تصحيح الشعراوي لمفهوم الأفضلية حتى يرد هذه الشبهة.

ثم توضيح الشعراوي لحكمة التفاضل بين الناس، وأنه لا أفضلية للناس بعضها على بعض إلا بالمواهب والعطايا الإلهية التي يمنحها الله–تعالي– و تأصيله من خلالها لقضية التكافل والتكامل الاجتماعي.

وبهذا التحليل من الشعراوي نراه يرد تلك الشبهة، وفي الوقت ذاته يُوجِّه عامة الناس إلى ضرورة تصحيح أفكارهم تجاه بعضهم البعض، حتى لا يطرأ الفساد إلى مجتمعاتنا، كما قد استشرى قبلًا بين المجتمعات المشركة.

●●●